أدب الحديث بتحسين العبارة وانتقاء اللفظ من مظاهر الإعجاز البياني في القرآن الكريم، دراسة استقرائية تحليلية.

The Moral Aspect of Discourse Based on Improving Phrases and Selecting Vocabulary One of the aspects in the Literary Inimitability of ihe holy Qur'an: An Inductive Analytical Study

*مالك بوعمرة سونة
Bouamrasouna.malek@gmail.com
جامعة البليدة 2 علي لونيسي (الجزائر)

تاريخ الإرسال: 2020/02/22 تاريخ القبول:2020/05/07 تاريخ النشر: 2020/09/14

الملخص:

يحرص المتكلمون والكتّاب على اختيار الألفاظ التي تحقق مرادهم بكفاءة وتعبر عن مقصودهم بوضوح، لكنهم كثيرا ما لا يتبعون ذلك -على أهميته- بالحرص على تحسين اللفظ وتهذيبه، رعاية لشعور المخاطب من جهة، وتدرجا في أدب القول إلى أعلى المراتب من جهة أخرى، وهو ما اعتنى به القرآن الكريم إلى درجة الإعجاز، وبحثي هذا يهدف إلى استقراء جملة من آياته المتعلقة بالباب وتحليلها، من أجل تتبعه والسير على منواله.

الكلمات المفتاحية:

أدب الحديث; حسن العبارة ; انتقاء اللفظ; **الإعجاز البياني**; **القرآن الكريم**.

ABSTRACT

Speakers and writers take care about the selection of the vocabulary which enables them to achieve their purpose efficiently and express their intention clearly. Nonetheless, they do not always respect this principle despite its importance. This is due to the fact that they take into consideration the feelings of the audience. Their aim is also to achieve the highest levels of discourse gradually and this is exactly what the Holy Qur'an has taken into consideration. This research aimed at analyzing a set of Quranic verses related to the topic so as to follow their pattern.

Key words:

the moral aspects of discourse; the aesthetic side of words; selecting words; Literary Inimitability ; the Holy Qur'an

1. مقدمة:

القرآن الكريم هو أرفع مصادر الشريعة المحمدية الخاتمة، وأفضل الكتب السماوية الحاكمة، وأكمل الرسائل الإلاهية الملهمة، حماه الله من التعطيل، وعصمه من التحريف والتغيير[(1)].

أثنى الله عليه في مواطن شتى من كتابه، فسماه أحسن الحديث وأخبر أنه يهدي للتي هي أقوم، وجزم أنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وحكم بأنه نور يهدي به من اتبع رضوانه سبل السلام، وقرر أنه مصدق لما بين يديه من الكتب مهيمن عليها، ومن أجل ذلك كله فإن وجوه النفع منه لا تكاد تنحصر أو تحد، فضلا عن أن تحصى أو تعد، لاسيما أنه حمَّال ذو أوجه، وأن المرء يقرأ منه المقطع يستفيد معنى معينا ثم يعيد النظر فيه ويقلب الفكر فتنقدح له معان جديدة كلها صحيحة مفيدة.

* المؤلف المرسل

ومن أجل ذلك كله وغيره؛ فقد تتابعت جهود المفسرين على مختلف مدارسهم، تتفهم وجوه أقواله ومعانيه وتتحسس غوامض أحكامه وبديع حكمه، وتسابقت أذهان أولي الألباب تتلمس بركته متدبرة آياته لتحقق التذكر والتفكر، ومع كل ذلك فإن الميدان لا يزال فسيحا والمضمار لا يزال رحبا، لمن أراد أن يصاحب هذا الكتاب فيستخرج منه ما يفيده في أخراه ودنياه.

وهذا البحث يسعى أن يكون لبنة – ولو صغيرة - في صرح التفسير العظيم، في شق التفسير الموضوعي بصفة خاصة، والأدبي بصفة أخص، فيحاول استقراء النصوص القرآنية التي تدلل على أن هذا الكتاب قد احتوى أحسن الألفاظ، واستعمل أعف الكلمات، وأن حسن الأدب فيه متجذر تجذرا يحمل من أمعن النظر فيه والبحث، وقصد الاعتبار والتمثل على أن يكون حسن اللفظ مهذبه، جميل العبارة منمقها، خاصة عند الجدال والمناظرة، التي تدفع الرغبة إلى الظهور فيهما إلى إلقاء الكلام المجافي للأدب في غالب الأحيان، وهذه إشكالية كبيرة يهدف هذا البحث لمحاولة إيجاد حل لها.

والفرضيات المحتملة هي:

1. نصوص القرآن الكريم غنية بنماذج مختلفة تتم فيها مراعاة الأدب وانتقاء الألفاظ في الحوار وعند الخلاف، سواء أكان ذلك من كلام الله نفسه، أو كلام بقية مخلوقاته .

2. يمكن من خلال النظر في نصوص القرآن اكتساب اللباقة في الحوار ومناقشة الآخر.

2. تعريف الأدب وبيان مظاهره في القرآن الكريم:

2. 1 تعريف الأدب:

جاء في القاموس المحيط أن الأدب هو الظرف وحسن التناول، وعرفه أصحاب المعجم الوسيط بأنه رياضة النفس بالتعليم والتهذيب على ما ينبغي[2]

وقد حرص القرآن الكريم على تلقين الأدب غاية الحرص، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يقول : **أدبني ربي فأحسن تأديبي**[3] ونقل أدبه إلى الصحابة ونقلوه بدورهم إلى من جاء بعدهم واهتموا به، ومن ذلك أن معاوية بن أبي سفيان جلس ومعه عمرو بن العاص رضي الله عنهما، فمر بهما عبد الملك بن مروان، فقال معاوية: ما آدب هذا الفتى وأحسن مروءته! فقال عمرو رضي الله عنه: يا أمير المؤمنين، إن هذا الفتى أخذ بحسن الحديث إذا حدَّث، وحسن الاستماع إذا سمع...] [4]

قال ابن القيم: وعلم الأدب: هو علم إصلاح اللسان والخطاب، **وإصابة مواقعه، وتحسين ألفاظه،** وصيانته عن الخطأ والخلل. وهو شعبة من **الأدب العام**.[5]

قال سعيد حوى: "ومن مظاهر الإعجاز في هذا القرآن أنك لا تجد حرفا فيه إلا وهو في محله، وفي مكانه، ووجوده فيه في غاية الحكمة، ويعطي في المكان الذي هو فيه من المعاني العجيبة. فمثلا تلاحظ أنّ

الخضر لمّا علل لأفعاله الثلاثة قال في الأولى: **فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا** وقال في الثانية: **فَأَرَدْنا أَنْ يُبْدِلَهُما رَبُّهُما خَيْراً مِنْهُ زَكاةً وَأَقْرَبَ رُحْماً** وقال في الثالثة: **فَأَرادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغا أَشُدَّهُما** ..." [(6)] وذلك من الأدب كما سيأتي.

وفيما يأتي أقسام متنوعة من مظاهر حسن العبارة وتهذيبها في الكلام، استقرأتها من أكثر من ثلاثين تفسيرا من تفاسير القرآن الكريم، واخترتها من بين مئات ما استقرأته، وقسمتها إلى أقسام كثيرة، وعدلت في وصف كلام الله من الأدب إلى حسن العبارة أو تهذيب الكلام أو أدب الخطاب القرآني لمَّا كانت صفة الأدب غير جائزة في حق الله تعالى.

2.2 مظاهر حسن الأدب في العبارة في القرآن الكريم :

لم يوصف القرآن الكريم بأنه أحسن الحديث إلا وقد حوى الحسن في جوانب الكلام كلِّها، ومن ذلك تهذيب العبارة وتحسينها مراعاة للأدب، لاسيما أن نصوص الكتاب والسنة عنت عناية فائقة باللسان وشددت على خطورته، ومن ذلك قوله تعالى [**ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد] ق،18**، وقوله تعالى [**وإن عليكم لحافظين، كراما كاتبين، يعلمون ما تفعلون] الانفطار 10-12**، ومن السنة أن معاذ بن جبل رضي الله عنه سأل النبي صلى الله عليه وسلم فقال " **وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به يا رسول الله ؟**" فأجابه عليه الصلاة والسلام بقوله:" **ثكلتك أمك يا معاذ، وهل يكب الناس في النار على وجوههم إلا حصائد ألسنتهم**"[(7)].

وإذ كان القرآن أمر بني إسرائيل بقوله [**وقولوا للناس حسنا] البقرة83**، فإنه أمر هذه الأمة بما هو أجل وأرفع فقال [**وقل لعبادي قولوا التي هي أحسن] الإسراء 53**، وفيما يأتي مجموعة من النصوص التي تؤكد على هذه الجزئية وتبينها بوضوح.

3- حسن العبارة في كلام الله تعالى.

1.3 - في كلام الله عن نفسه.

عندما يتناول القرآن الكريم الحديث عن الله سبحانه وتعالى نلمح دقة كبيرة في اختيار الألفاظ، وذلك بترتيب الكلمات على نحو ينزه الذات العلية عن أن توصف بما لا يليق أو يُنسب إليها ما لا ينبغي ومن أمثلة ذلك:

1/ قال تعالى [**قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء، وتعز من تشاء وتذل من تشاء، <u>بيدك الخير</u>، إنك على كل شيء قدير**] آل عمران 26.

فهذه الآية الكريمة فيها ملمحان من ملامح رعاية الكمال في الخطاب المتعلق بالله تعالى وهما:

الأول:

تقديم الخبر للتخصيص لأن أصل الكلام " الخير بيدك "، والمعنى أن الخير بيدك لا بيد غيرك،[(8)] وفيه ترغيب لهم في الإقبال عليه والإعراض عما سواه.

الثاني:

عدم ذكر الشر تعليما لعباده الأدب في خطابه[9]

قال القشيري: ولم يذكر الشر حفظا لآداب الخطاب، وتفاؤلا بذكر الجميل، وتطيرا من ذكر السوء.[10]

وقال الثعلبي: أكتفي بذكر الخير فإنه الأفضل والأغلب،[11]ونظيره قوله تعالى [**إن علينا للهدى**] فإنه ترك الإضلال للحكمة نفسها.[12]

ووصْفه بالقدرة على كل شيء في آخر الآية تنبيه على أنه أراد الأمرين، فإنَّ سعة القدرة تقتضيهما [13] وفي عدم ذكر الشر توجيهات أخرى كثيرة لا تعارض المذكور، وإنما اخترت منها ما تعلق بالمقصود.[14]

2/ وقال سبحانه [...**فريقا هدى وفريقا حق عليهم الضلالة**...] الأعراف 30.

سبَّق الهداية لأن الفائدة بها أعظم، ولم يذكر الفاعل وهو الله تعالى تكرما منه سبحانه، وغيَّر الأسلوب فلم يقل وفريقا أضل، تحاشيا عن إسناد الإضلال إلى الله كما قال الزمخشري وإن لم يرتضه ابن عاشور.[15]

ثم إنه لم يذكر سبب الهداية ليدل على أنها فضل منه محض سبحانه، وذكر سبب الثبات على الضلالة الموجودة أصلا بقوله في تتمة الآية " **إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ويحسبون أنهم مهتدون**".

وهذه الآية تشبه تماما قوله تعالى **[وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ]** النحل 37.

3/ وقال سبحانه [... **ليجزي الذين أساؤوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى] النجم 31**.

مقتضى الصناعة في هذه الآية أن يؤتى بتجنيس الازدواج في صدر الآية، كما أتى به في عجزها، لكنه منع منه توخي التأديب والتهذيب في نظم الكلام، حتى لا تنسب السيئة لله تعالى، فعبر سبحانه في موضع" **بالسيئة** "بـ " **بما علموا** " فَعَوَّضَ عن تجنيس المزاوجة الإرداف، لما في الإرداف من حسن الأدب مع الله تعالى ليعلمنا ذلك، ولمَّا كان قولُه تعالى " **وجزاء سيئة سيئة مثلها** " **الشورى 40**، قد أُمِنَ فيه هذا المحذور، أتى الكلامُ فيه على مقتضى الصناعة[16]

4/ وقال عز وجل [**وإذا أذقنا الناس رحمة فرحوا بها، وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم إذا هم يقنطون] الروم 36**.

هذه الآية تدخل ضمن منظومة آيات تربو عن العشرة،[17] تُبَيِّنُ أن حياة الإنسان تدور بين نعم وعطايا ونقم ورزايا، وإذا تأملنا مسلك القرآن فيها نجده استعمل أرقى أساليب الأدب والكمال اللائق بحق الله تعالى في الحالتين معا، وذلك من أوجه شتى:

أولا:

تصدرت الرحمة الكلام، والتصدير يؤذن بالتقدير، وجاءت بـ (إذا) الدالة على الكثير المرغوب، بينما جاءت السيئة متأخرة وبـ (إن) الدالة على النادر المكروه، لأن الرحمة وقوعها كالواجب لكثرتها واتساعها، وأما السيئة فلا تقع إلا في الندرة، لأنها قد تتخلف كثيرا ولا يقع إلا شيء منها.[18]

ثانيا:

عبَّر في الرحمة بالإذاقة ونسبها إلى نفسه "**أذقنا**" لأن حصولها مرغوب مترقب، وعبر في السيئة بالإصابة ولم ينسبها إليه " **تصيبهم**" لأنها غير مرغوبة ولا مترقبة، ومقتضاه أن الحسنات -من نعم الصحة والخصب والرخاء- متوالية عليهم متكاثرة، والسيئات والمصائب قليلة نادرة، وحق ذلك كله الشكر والإيمان، ولكنهم عوضوهما بالجحود والعصيان.

ثالثا:

لم يذكر القرآن سبب إذاقة الرحمة وإنما أطلقه، وذكر سبب الإصابة بالسيئة " **بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ** " ليدلَّ على عدله تعالى في إنزال المصيبة إذ لا تكـون إلا بذنب مع أنه يعفو عن كثير، وتفضُّله في إذاقة الرحمة، فالأمــر دائر بيــن العدل والفضل.[19]

5/ وقال سبحانه [**فذكر إن نفعت الذكرى، سيذكر من يخشى، ويَتَجَنَّبُهَا الاشقى**] **الأعلى10-11**، وقال [**فأنذرتكم نارا تلظى، لا يصلاها إلا الاشقى، الذي كذب وتولى، وسَيُجَنَّبُهَا الاتقى**] **الليل15-17**.

من مراعاة اللفظ وانتقاء العبارة هنا، أن الله سبحانه وتعالى لما بين أن الناس أمام الذكرى قسمان: متذكر وهو الذي يخشى الله، ومتجنب للذكرى وهو الأشقى، نسب الفعل إلى الأشقى قائلا " **يَتَجَنَّبُهَا**" لما كان تجنبها أمرا سيئا، مع أنه

قال في موضع آخر " **وما تذكرون إلا أن يشاء الله** " **المدثر56**، ولم ينسب الأمر إلى نفسه سبحانه.

وبالمقابل فإنه في سورة الليل، لما بين أن الناس أمام النار الحامية قسمان: هالك وناج، قال عن النار " **وسَيُجَنَّبُهَا الأتقى**" للدلالة على أنه لا ينجو منها إلا بتجنيب الله له من أن يصلاها، ولم أعثر على هذا من مرجع معين، وإنما شيء فتح الله به علي أرجو أن يكون صوابا.

وقريب من هذا قوله تعالى " **نبيء عبادي أني أنا الغفور الرحيم، وأنا عذابي هو العذاب الأليم**" **الحجر 49-50**، فقد وصف نفسه بالغفور الرحيم، ولو تم الكلام على نفس النسق لكان قال أنا المعذب المؤلم، لكنه عدل عنه إلى الصيغة المذكورة، مراعاة لحسن الكلام.

2.3 - في كلام الله مع عباده وتأديبه لهم.

1- قال الله تعالى **[يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا واسمعوا] البقرة 104.**

مقام النبي صلى الله عليه وسلم في القرآن عظيم جدا، فقد أقسم الله بحياته، ودافع عنه، وحرَّم إذايته، وذكر اسمه مع اسمه في مقامات كثيرة، وأعطى بحياته الأمان، وذمَّ خصومه، وغار عليه في مواضع، وخوَّف من انتهاك مقامه، ووصف بالسلب من لم يتأدب معه، وجعله محل القدوة الحصري، فلا جرم لقَّنَ الصحابة الكرام وجوب التزام غاية الأدب عند الحديث معه، ومن باب أولى الانتهاء عن كل ما يخالف ذلك.

وقد كان الصحابة الكرام ملتزمين بذلك معه صلى الله عليه وسلم غاية الالتزام، إلا أنه ندَّ عن بعضهم لفظ لم يقصدوا منه سوءا لكنه يحتمله، فاستغله اليهود أبشع استغلال وأسوئه للنيل من النبي عليه الصلاة والسلام، فتدخل القرآن ناهيا عن هذا اللفظ وإن كان القصد منه سليما، لأنه يحتمل جفاء من جهة؛ ولأن الأعداء من اليهود نفذوا من خلاله بغية النيل من رسول الله صلى الله عليه وسلم من جهة أخرى.

واللفظ المراد هو قولهم [**راعنا**] وإنما قصدوا به راع أحوالنا، وقيل إنهم كانوا يقولون ذلك إذا ألقى عليهم النبيء صلى الله عليه وسلم الشريعة والقرآن يتطلبون منه الإعادة والتأني في إلقائه حتى يفهموه ويعوه، فكانوا يقولون له: راعنا يا رسول الله أي لا تتحرج منا وارفق.[20]

ويحتمل أن يكون معناه فَرِّغ سمعك لكلامنا حتى تفهم، أو ارعنا نرعك، واحفظنا نحفظك، وارقبنا نرقبك على سبيل المفاعلة، وإذ قد احتمل ذلك فغير خاف ما فيه من الجفاء والخشونة.[21]

ثم إن الأمر تطور فصار اليهود يستعملونه يقصدون به معنا قبيحا عندهم، قيل هو الرعونة، وقيل معناه اسمع لا سَمِعْتَ، فَفَطِنَ بعض الصحابة لمكرهم فهددهم فقالوا: ألستم تقولونه؟ فأنزل الله الآية تنبيها للقول الحسن وإرشادا إلى الأدب الجميل، بأن يتجنبوا في مخاطباتهم الألفاظ التي توهم جفاء أو تنقيصا في مقام يقتضى إظهار المودة أو التعظيم،[22] فَأُمِرُوا أن يقولوا «انظرنا» أي: انتظرنا وتأنَّ معنا حتى نفهم عنك، من "نظر" بمعنى انتظر وترقب، وبهذا المعنى ورد قوله تعالى [**انْظُرُونا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ**] **الحديد 13**، أي: انتظرونا نقتبس من نوركم.[23]

2- وقال سبحانه **[ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات فمن ما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات والله أعلم بإيمانكم بعضكم من بعض فانكحوهن بإذن أهلهن ...]النساء 25.**

عبر الله تعالى عن الإماء بالفتيات وعن المالكين لهن بالأهل تعليما لحسن الأدب، قال صاحب التفسير الوسيط:

" وفي التعبير عن الإماء بقوله "**فَمِنْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ مِنْ فَتَياتِكُمُ الْمُؤْمِناتِ**" تكريم لهؤلاء الأرقاء، وإعزاز لإنسانيتهن، وتعليم للمسلمين أن يلتزموا الأدب في مخاطبتهم لأرقائهم، ولذا ورد في الحديث الشريف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**لا يقولن أحدكم عبدى وأمتى، ولكن ليقل فتاي وفتاتي**».[24]

وقال الشيخ أبو زهرة: وأهلهن في هذا المقام هم المالكون لهن، وعبَّر عن المالكين بالأهل حملا للناس على الأدب في التعبير، ولأنه يجب أن تكون العلاقة بين العبد ومالكه علاقة أهل وإخاء لَا علاقة رق واستعلاء.[25]

وكما قيل في الأَمَة فتاة جريا على حسن التعبير يقال في العبد فتى عملا بالعلة ذاتها، ومن ذلك قوله تعالى [**وإذ قال موسى لفتاه لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين**] **الكهف 60**، فقد قال فيه ابن عطية:

و«الفتى» في كلام العرب الشاب، ولما كان الخَدَمَةُ أكثر ما يكونون فتيانا، قيل للخادم فتى على جهة حسن الأدب.[26]

3- وقال [...وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء ...] النساء 43.

قوله : «**أَوْ جاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغائِطِ**» حديث عن الغائب المفرد، ولو جاء على نسق النظم في الآية كلها لجاء هكذا: "أو جئتم من الغائط"، وذلك تنكيرا وإخفاء لهذا الذي كان عريانا يباشر عملا يحبّ أن يستر من جهة، واحتراما لحياء المخَاطَبين من جهة أخرى، حتى لكأنهم لا يفعلون هذا الفعل الذي هو ضرورة ملزمة لكل حيٍّ وهذا هو أدب الحديث، الذي لم تعرف الحياة في أعلى مستوياتها أدبا يدانيه فضلا عن أن يماثله.[27]

ومن جهة ثالثة فإنه يتحدث عن الوقاع بلفظ يقطر حياء " **أو لامستم النساء**" وهكذا دأب القرآن في كل تعبيراته الدالة على تلك العملية التي مع كونها سنة من سنن الله تستنكف الأنفس الحيية عن ذكرها تصريحا.[28]

4- وقال عز وجل [**وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها** ...] **النساء 86**

هذا من القول الحسن الذي يوجبه الله على عباده، وحسن الأدب مع من يلقون من الناس إن هم بادروا إلى تحيتهم بأن يردوا عليهم بأحسن منها أو بمثلها على الأقل، لأنهم حينئذ قد سبقوهم إلى فضل وإحسان، وردُّ التحية بمثلها قضاءٌ لقرضٍ حسنٍ، ولا حَمْدَ لمن أدَّى ما اقترض.[29]

وقد تحقق هذ الأدب في قصة ضيف إبراهيم من الملائكة المكرمين، لأنهم حيَّوْهُ بقولهم "**سلامًا**" أي نسلم سلاما على المفعول المطلق، فرد عليهم بقوله " **سلامٌ**" بالاسم، والاسم أقوى من الفعل وأثبت، فيكون أحسن.

5- وقال [سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم، ويقولون خمسة سادسهم كلبهم رجما بالغيب، ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم، قل ربي أعلم بعدتهم ...] الكهف22.

اشتملت هذه الآية الكريمة على ما ينبغي التزامه من الأدب والإنصاف في مقام حكاية الأقوال، فإنه تعالى أخبر عن عدة أصحاب الكهف بثلاثة أقوال، ضعَّف القولين الأوَّلين وسكت عن الثالث فدلَّ على صحته؛ إذ لو كان باطلا لرده كما ردهما، ثم أرشد إلى أن الاطلاع على عدتهم لا طائل تحته.[30]

4- حسن العبارة في كلام الأنبياء.

1.4- في حديثهم إلى ربهم.

1- قال الله عز وجل:

[وإذ ابتلى إبراهيمَ ربُّه بكلمات فأتمّهن، قال إني جاعلك للناس إماما، قال ومن ذريتي؟ قال لا ينال عهدي الظالمين... وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلدا آمنا وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر، قال ومن كفر فأمتعه قليلا ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير] البقرة 24 و26.

ظاهر كلام بعض أهل التفسير أنهم مختلفون في المعنى المراد بكلمة "**من**" في قوله " **من ذريتي** " ما هو؟ فمفهوم كلام قوم أنه بيان الجنس، ومنطوق كلام قوم آخرين أنه التبعيض، ومهما يكن من أمر ففيه مراعاة للأدب.

فأما بيان الجنس وهو اختيار الرازي وقومٌ فوجه الأدب منه أن الله تعالى لما امتن على ابراهيم عليه السلام بالإمامة، طمع أن يتعدى الخير لذريته فقال " **ومن ذريتي**" فأعلمه أن ذلك مخالف لحكمته من هذا العالم والتي لم تجر بأن يكون جميع نسل أحد ممن يصلحون لأن يقتدى بهم، فلمَّا دعى بأمن البلد ورزق الثمرات قيده بقوله "**من آمن منهم بالله**"، فقال الله: لا حاجة إلى هذا التقييد، بل ومن كفر فأمتعه قليلا. فكأنه تعالى قال: أما نعمة الأمان فهي دينية فلا تحصل إلا لمن كان تقيا، وأما نعمة الدنيا فهي تصل إلى البر والفاجر والصالح والطالح.[31]

وأما التبعيض فوجه الأدب منه أنه عليه السلام جمع بين الحرص على حصول الفضيلة للذرية وبين الأدب في الدعاء لأن نبوءة إبراهيم تقتضي علمه بأن ذريته ستكون أمما كثيرة، وأن حكمة الله في هذا العالم جرت على أنه لا يخلو من اشتماله على الأخيار والأشرار فدعا اللهَ بالممكن عادة.

قال الشيخ ابن عاشور: "و (مِن) في قوله: **ومِن ذريتنا** – يقصد دعاء ابراهيم واسماعيل الوارد بعد آيتين- للتبعيض، وقد تقدم نظيره في قوله تعالى: قال ومن ذريتي"[32].

وقال الشيخ محمد رشيد رضا: " ومن دعاء إبراهيم في السورة المسماة باسمه (**رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي**)" **آية 40**، وقد راعى الأدب فلم يطلب الإمامة لجميع ذريته بل لبعضها؛ لأنه الممكن ولأن فيه مراعاة لسنن الفطرة أيضا، فمن خالف ذلك فهو غير جدير بالإجابة، سيئ الأدب مع الله تعالى؛ لأنه يدعوه لأن يبطل لأجله سنته التي لا تتبدل ولا تتحول، أو يَنْسَخَ شريعته بعد ختم النبوة وإتمام الدين،[33].

غير أن الذي يظهر لي أن اختيار الرازي أوجه بدليل ما ذكره أولا، وبدليل قوله تعالى عقب الدعاء [**لا ينال عهدي الظالمين**] ولو كان إبراهيم قاصدا بعض ذريته لا دونها لما كان الله - الذي هو الأعلم بمقصوده - أجابه تلك الإجابة، وهو وجه انقدح لي لم أقف عليه عند غيري.

2- قال الله تعالى [وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله قال سبحانك ... وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم] البقرة 116-118.

التزم عيسى عليه السلام - أحد أولي العزم من الرسل- مع ربه سبحانه في هذا الحوار العظيم - وقد سأله وهو أعلم إن كان أَمَرَ الناس أن يتخذوه وأمه إلهين من دونه- جملة من الآداب هذا بيان لبعضها:

قال "**سبحانك**" وهو تنزيه لله عن النقص، ثم نفى عن نفسه أن يقول ما ليس له بحق بأبلغ صفات النفي "**ما يكون**" ومقتضاه أنه قول باطل، ودل بالمضارع أن هذا الفعل لا يزال ممنوعا.

ثم لما شرع يُبَيِّنُ هل قال ذلك القول أم لا،- ولأن المقام مقام خضوع وتواضع- ؛لم يبرِّئْ نفسه فيزكيها ولا أقرَّ عليها فيتهمها بما ليس فيها، بل فوض ذلك كله إلى علم الله المحيط بكل شيء بأوجه من الأدب رفيعة.

"**إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ**" لم يقل: "ما قلته" بل فوض ذلك إلى علمه المحيط بالكل، لأنه يعلم خفايا النفوس والضمائر"**تعلم ما في نفسي**"، فمن باب أولى يحيط بالأقوال المعلنة، ولم يكتف بإثبات علم الله بما في النفوس - على خفائه- حتى ألحقه بإثبات الجهل لنفسه" **ولا أعلم ما في نفسك**" وفيه توبيخ ضمني لمن ادعى له الألوهية، ثمَّ عَلَّلَ الأمرين كليهما بحصر علم الغيب لله "**إنك أنت**" وبالمبالغة في العلم والجمع في الغيب "**علام الغيوب**".[34]

وبعد أن نفى القول إشارة نفاه بأبلغ عبارة، إذ كان المناسب أن يقول " ما أمرتهم إلا بما أمرتني به" بدليل ورود أن المفسرة، لكنه عدل عنه إلى " **ما قلت لهم**" لئلا يجعل نفسه وربه آمرين معا، بل بيَّن أنه مثلهم في العبودية سواء " **أن عبدوا الله ربي وربكم**"، واعتذر عن نفسه بأنه بالغ في أداء الشهادة ما كان فيهم" **وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم**" ثم أثنى على ربه سبحانه بقوله " **فلما توفيتني**" أي رفعتني إليك مع أنهم بلغوا جهدهم في قتلي "**كنت أنت**" وحدك " **الرقيب عليهم**" دوني، لأني لما بَعُدْتُ عنهم انقطع علمي بأحوالهم، ثم أعاد الكرة في الثناء فقال "**وأنت على كل شيء شهيد**" مطلع غاية الاطلاع لا يعزب عنك شيء.[35]

ثم جاءت هذه الآية العجيبة التي ورد أن النبي صلى الله عليه وسلم قام ليلَه كلَّه بها يرددها حتى أصبح " **إن تعذبهم فإنهم عبادك، وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم**" ففوض أمرهم إلى الله ولم يبد رغبة، إلا أنه عرَّض بتجويز المغفرة لهم، لكنه قدَّم العذاب لئلا يكون كالمتألي على الله في الحكم بها من جهة ؛ولعظيم جرمهم من جهة أخرى، ثم بلغ أقصى درجات الاحتياط بِذِكْرِ العبودية مع العذاب والمعنى أنك ستعذبهم غير ظالم لهم لأنك أرحم بهم، وذِكْرِ المغفرة مع العزة ليدل على أنها فضل من الله فلا أحد يعترض عليه ولا يفعل ذلك لضعف، ومع الحكمة فلن يفعل شيئا إلا على أعلى درجات الإحكام.[36]

2- وقال سبحانه وتعالى **[فلمَّا رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر، فلمَّا أفلت قال يا قوم إني بريء مما تشركون] الانعام 78.**

أشار ابراهيم عليه السلام إلى الشمس بقوله "**هذا**" مع أنها مؤنثة، قيل لأنها بمعنى الضياء، أو أنها أشبهت المُذَكَّرَ لغياب علامة التأنيث، أو أنه أراد هذا الطالع أو هذا الذي أراه، أو أنه ذَكَّرَ لأن العجم لم يكونوا يفرقوا بين المذكر والمؤنث، ولذلك لما لم تكن حكاية عنهم؛ جرى على العربية فأنَّثَ وقال "**بازغة... أفلت**".[37]

والذي يظهر لي أنه وصفها بذلك رعاية للأدب، بترك التأنيث عند ذكر اللفظ الدال على الربوبية.
قال الزمخشري: وكان اختيار هذه الطريقة واجبا لصيانة الرب عن شبهة التأنيث، ألا تراهم قالوا في صفة الله «علاّم» ولم يقولوا «علاّمة» وإن كان العلامة أبلغ، احترازا من علامة التأنيث.[38]

3- وقال **[ونادى نوح ربه فقال: رب إن ابني من أهلي، وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين] هود 45.**

لم يصرح نوح- عليه السلام- بمطلوبه وهو نجاة ابنه تأدبا مع الله- تعالى- وحياء منه- سبحانه-، لكنه فُهِمَ من قوله "**وإن وعدك الحق**" لأن الله أمره أن يُرْكِبَهُمْ معه ووعده أنه مُنْجِيهِمْ ومن آمن معه، وختم قوله بـ "**وَأَنْتَ أَحْكَمُ الحَاكِمِينَ**" معرِّضا دائما بأنك عليم بما أريد خبير بما يجول في نفسي.

وهذا لأنه لم يكن يعلم أنه ممن استثناه الله ممن سبق عليه القول منهم، كما كان حال النبي صلى الله عليه وسلم مع عمه أبي طالب، وكما حكى القرآن الكريم عن أبي الأنبياء ابراهيم قوله" **وما كان استغفار ابراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه**"[39] **التوبة114**، ولذلك سارع إلى الاعتذار لمَّا أعلمه الله بذلك فقال "**رب إني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم، وإلا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين**" **هود 47.**

4- وقال **[أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر فأردت أن أعيبها... وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين ... فأردنا أن يبدلهما ربهما خيرا ... وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحا فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ...] الكهف 79-81.**

لم يفارق الخضر موسى عليهما السلام حتى بين له أسرار ما لم يستطع عليه صبرا، منوعا في الأساليب [**أردت، أردنا، أراد ربك**] لئلا تأت على نمط واحد مكرر ممجوج، وتحقيقا - وهو المهم- لكمال الأدب مع الله.

وبيانه أنه نسب إعابة السفينة إلى نفسه فقط " **أردت**"، لأنها وإن أفضت إلى صلاح - أَنْ كانت بأمر الله لئلا يغتصبها الملك- ، فهي إفساد محض في ظاهر الأمر، لا سيما أن أهلها عرفوا الخضر فحملوهما بغير أجرة [40]، وفي قتل الغلام قال "**فأردنا**"، قيل من باب قول خواص الملك (أَمَرْنَا بِكَذَا) وإنما يعنون (أَمَرَ الملك)، وقيل تنبيها على أنه من العلماء العظماء، وأنه لم يقدم على مثل هذا القتل إلا بحكمة عالية.[41]

والأظهر أن فيه مراعاة الأدب مع الله، لأن قتل الغلام إفساد من حيث الفعل، إنعام من حيث التبديل، فلم ينسبه إلى نفسه منفردة صراحة لأنها إرادة الله وحده وما هو إلا منفذ، ولم ينسبه إلى الله صراحة لأنه لم يجد من الأدب نسبة القتل لله، وإنما نسب إلى نفسه العيب في السفينة لأنها أقل خطورة،[42] ولَطَّفَ الأمر هنا بشيئين:
الأول:

ذكر فائدة الفعل [**يبدلهما**] دون الفعل وهو القتل، فلم يقل "**فأردنا أن نقتله حتى**" كما قال في السفينة [**فأردت أن أعيبها**].

الثاني:

أسند التبديل إلى اللَّه لأنه لَا يكون إلا منه، مع الإشارة إلى أنه يريده أيضا وإن لم يقع في حوله.

ولمَّا ذكر رعاية المصالح في مال اليتيمين لأجل صلاح أبيهما أضافه إلى الله سبحانه وتعالى وحده فقط [**فأراد ربك**]، لأنه إنعام محض، ولأن حفظ الأبناء وصلاح أحوالهم لرعاية حق الآباء ليس إلا لله سبحانه وتعالى، ولأن بلوغهما الحلم لا يقدر عليه إلا الله.[43]

4 .2- في حديثهم مع أقوامهم وأعدائهم.

1- وقال جل وعلا **[وقال موسى ربي أعلم بمن جاء بالهدى من عنده ومن تكون له عاقبة الدار، إنه لا يفلح الظالمون] القصص37.**

حَرَصَ الأنبياء عليهم السلام على انتقاء ألفاظهم عند مخاطبتهم لأقوامهم فدعوهم إلى الله بأحسن كلام وأرقه، فهذا موسى عليه السلام يخاطب قومه بلين، ولم يَرُدَّ عليهم بالقسوة التي سمعها منهم، ولم يتهمهم كما اتهموه، بل كان منصفا في المقال، وقال "**يا قوم**" مذكِّراً بما بينهم من النسب الداعي إلى الود والمناصحة والعطف والملاطفة، ثم قال "**ربي أعلم بمن جاء بالهدى**" ولم يقل جئتكم بالهدى، ولا قال (العاقبة لنا) بل فوض الأمر إلى الله، ثم قال: "**إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظالمون**"، ولم يقُلْ: أنتم الظالمون، لقد أطلق القضية، وترك للعقول أنْ تميز.

وهذا الإنصاف في المقال والأدب في رعاية الحال شائع في القرآن الكريم كثيرا، فمن ذلك قوله تعالى: [**قل إن ضللت فإنما أضل على نفسي وإن اهتديت فبما يوحي إلي ربي إنه سميع قريب**] سبأ 50.

وقوله سبحانه [**وإنا أو إياكم لعلى هدى او في ضلال مبين**] الزمر 26.

وقوله جل وعلا [**قل ما كنت بدعا من الرسل وما أدري ما يفعل بي ولا بكم، إن أتبع إلا ما يوحى إلي، وما أنا إلا نذير مبين**] الاحقاف 9، وهذا في الدنيا، لا يدري أَيُقْتَلُ أم يُخْرَجُ، وهل يخسف بهم أم يرجمون بالحجارة، أما في الآخرة فقد علم أنه في الجنة ولكنه لم يذكره لهم أدبا حتى لا يثيرهم.[44]

بل لقد قال الله تعالى [**قل لا تسئلون عما أجرمنا ولا نسئل عما تعملون**]

لم يقل الله إنهم هم الذين يجرمون، بل جعل الجرم -إن صح- على المؤمنين، وجعل العمل -وإن فسد- مع الكافرين وقد كانت المساواة تقتضي أن يقول "ولا نسأل عما تجرمون" ولكنه لم يقل ذلك.

وهذا هو الأدب العالي واللطف، لأن الحق سبحانه وتعالى يريد ألا يترك الرسول لغرائزهم مكاناً للإباء عليه، وألا يجدوا وسيلة لينفروا من الدعوة، والعلَّة أنهم سيخرجون من الباطل الذي أحبوه وأَلفوه إلى الحق الذي يكرهون، فلا تجمع عليهم شدتين، لذلك في أشد ما كان إيذاء الكفار للنبي عليه الصلاة والسلام كان يقول: «اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون».[45]

2- وقال تعالى في قصة نوح عليه السلام [قال الملأ من قومه إنا لنراك في ضلال مبين، قال يا قوم ليس بي ضلالة ولكني رسول من رب العالمين، أبلغكم رسالات ربي وأنصح لكم وأعلم من الله ما لا تعلمون] الاعراف 60-61.

وقال في قصة هود عليه السلام **[قال الملأ من قومه إنا لنراك في سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين، قال يا قوم ليس بي سفاهة ولكني رسول من رب العالمين، أبلغكم رسالات ربي وأنا لكم ناصح امين] الاعراف 66-68.**

نبي يتهم بالضلالة وآخر بالسفاهة وخفة العقل، ومع ذلك يواجهان ذلك بالحلم وحسن الأدب والإعراض عن المقابلة بالمثل، مع علمهم بأن خصومهم أضل الناس وأسفههم، لكنه كمال النصح والشفقة وهضم حق النفس وحسن المجادلة وجذب القلوب الى الهداية، وإخبار الله تعالى ذلك تعليمٌ لعباده كيف يخاطبون السفهاء.(46)

ومن ذلك قوله تعالى [**وإذ قال موسى لقومه إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة، قالوا أتتخذنا هزؤا؟ قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين**] البقرة 67.

وقوله تعالى [**أم يقولون افتراه؟ قل ان افتريته فعلي إجرامي وأنا بريء مما تجرمون**] هود 35.

وهي في جملتها ردود هادئة تلتزم كمال الأدب في الرد على المخالف مع بشاعة ما يستعمله من الألفاظ وقبحه.

5 - حسن العبارة في كلام البشر غير الأنبياء.

ما سبق من نماذج يختص بكلام الله تعالى وكلام أنبيائه الكرام، وقد أفردتهم بمبحث لاختصاصهم بالعصمة التي لم ينلها غيرهم من البشر، وفيما يأتي نماذج مختصرة من أدب الحديث في كلام المخلوقين من بشر وجن وملائكة.

1.5- في كلام البشر غير الأنبياء مع ربهم:

1- قال الله تعالى **[صراط الذين أنعمت عليهم، غير المغضوب عليهم ولا الضالين] الفاتحة 7- 8 .**

هذا دعاء فيه من ألوان الأدب ما فيه، فالمسلم وهو يدعوا ربه بأن يهديه ومن معه إلى الصراط المستقيم يقر ضمنا بأنَّ ذلك أمر غير مقدور عليه بغير توفيقه سبحانه، وفيه اعتراف على النفس بالعجز ولله بالفضل، ثم إنه نسب إليه النعمة فقال "**أنعمت**" ولم يقل المنعم عليهم لما كانت فضلا، ولم ينسب إليه الغضب ولا الإضلال وإن كانا منه عدلا، فلم يقل غير الذين غضبت عليهم ولا الذين أضللتهم.

2- وقال سبحانه**[أو كالذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها قال أنى يحيي هذه الله بعد موتها؟] البقرة 259**

لم يسم الله تعالى عزيرا هنا، في حين أنه سمى ابراهيم من بعد " **وإذ قال ابراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى**؟" ومقصودهما من البحث في القصتين واحد، قيل لأن في سؤال ابراهيم من الأدب ما ليس في سؤال

عزيرا، لأنه في صورة الإقرار لا الإنكار، كما أنه سبق بالثناء والاستعطاف قائلا "رب"، مع ما فيه من طلب زيادة العلم.

وأيضا فإن إبراهيم لما راعى الأدب جعل الله الإحياء والإماتة في الطيور، وعزيرا لما لم يراع الأدب جعل الإحياء والإماتة في نفسه، ومع ذلك كله ففي قول الله تعالى لإبراهيم " أولم تؤمن" - وهو أعلم بإيمانه– إرشاد له عليه السلام وتأديب لعباده من خلاله إلى ما ينبغي للإنسان أن يقف عنده ويكتفي به في مثل هذه المقامات.[47]

2.5- في كلامهم فيما بينهم:

1-قال الله تعالى [ثم أذن موذن ايتها العير إنكم لسارقون، قالوا وأقبلوا عليهم ماذا تفقدون، قالوا نفقد صواع الملك...] يوسف 70-72.

قال أبو السعود: العدول عما يقتضيه الظاهر من قولهم ماذا سُرِقَ منكم؛ لبيان كمال نزاهتهم بإظهار أنه لم يسرق منهم شيء فضلا أن يكونوا هم السارقين له وإنما الممكن أن يضيع منهم شيء فيسألونهم أنه ماذا، وفيه إرشاد لهم إلى مراعاة حسن الأدب والاحتراز عن المجازفة ونسبة البرآء إلى ما لا خير فيه، لا سيما بطريق التوكيد فلذلك غيروا كلامهم حيث قالوا في جوابهم "**نفقد صواع الملك**" ولم يقولوا سرقتموه أو سرق.[48]

2- وقال سبحانه [**فلما جاءه الرسول قال ارجع إلى ربك فسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن...**] **يوسف50**.

قال الرازي: اقتصر على قوله: "**ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن**"، وإن كان غرضه ذكر امرأة العزيز فستر ذكرها، وتعرض لأمر سائر النسوة مع أنه وصل إليه من جهتها أنواع عظيمة من البلاء، وهذا من الأدب العجيب[49]

وقد عنَّ لي أن أذكر في آخر هذا البحث أنَّ شراح الحديث اعتنوا بمراعاة الأدب في الحديث عناية مثيرة للإعجاب، ويمكن بالاستقراء جمع نصوص كثيرة تدل على ذلك، سأنقل منها نصا طويلا متميزا لصاحب المنار بشيء من الاختصار والتصرف.

قال السيد محمد رشيد رضا:

"ذكر الله عذاب الكفار ليدل على أهمية التوحيد، وإنما ينقل ذلك في مجال تعليم التفسير والحديث والسيرة، ولا يجوز أن يتجاوز ذلك إلى ما يخل بالأدب، ويؤذي الرسول أو آله بحسب أو نسب، وناهيك بالأم والأب، وبأبي طالب دون أبي لهب، بل لا ينبغي أن يذكر أبو لهب بسوء موصوفا بكونه عم الرسول - صلى الله عليه وسلم - إلا في مقام التعليم والبيان الذي تقدم.

ومن هدي علماء السلف في ذلك ما روي عن عمر بن عبد العزيز - رضي الله عنه - أنه أتي بكاتب يخط بين يديه وكان أبوه كافرا، فقال للذي جاء به: لو كنت جئت به من أولاد المهاجرين، فقال الكاتب: ما ضر رسول الله- صلى الله عليه وسلم - كفر أبيه. فقال عمر: قد جعلته مثلا! لا تخط بين يدي بقلم أبدا.

ومنه أن الشافعي - رضي الله عنه - قال: وقطع رسول الله صلى الله عليه وسلم امرأة - أي يدها - لها شرف فَكُلِّمَ فيها فقال " لو سرقت فلانة - لامرأة شريفة - لَقَطَعْتُ يدها " وإنما قال - صلى الله عليه وسلم - " **لو سرقت فاطمة** " فكنى الشافعي عن فاطمة - عليها السلام - ولم يذكر اسمها مبالغة في الأدب، مع أن إسناد السرقة إليها في الحديث مفروضٌ فرضا لا واقعا، وهو يذكره في سياق الاستنباط من السُنَّة الذي يجوز فيه ما هو أعظم من ذلك.

ومن هذا القبيل: ما فعله أبو داود - رحمه الله تعالى - في حديث تعزية فاطمة - عليها السلام - في مَيِّتٍ وقول النبي - صلى الله عليه وسلم - لها: " **فلعلك بلغت معهم الكدى؟** " أي المقابر، قالت: **معاذ الله وقد سمعتك تذكر فيها ما تذكر**، فقال لها كما في سنن النسائي: " **لو بلغتها معهم ما رأيت الجنة حتى يراها جد أبيك** " وأما أبو داود فرواه هكذا: قال: " **لو بلغت معهم الكدى** " فذكر تشديدا عظيما. وقالوا: إنه ترك التصريح بآخر الحديث من باب الأدب.

وقد استنتجت من خلال هذا البحث الاستقرائي التحليلي جملة نتائج منها:

- يعتني القرآن الكريم بأدب العبارة عناية شديدة.
- يختار القرآن أحسن الألفاظ وآدبها في حديث الله عن نفسه وفي مخاطبته لأوليائه وعباده.
- تميَّزَ كلام الأنبياء مع خالقهم بأرفع درجات الأدب، ولم يخل من ذلك كلامهم مع أقوامهم ومخالفيهم.
- رغَّبَ القرآن في التزام أدب الحديث بذكر نماذج عالية من كلام البشر وغيرهم فيما بينهم ومع ربهم.

ومن المفيد هنا أن تقوم دراسات استقرائية أوسع وأعمق في هذا المجال ليوقف على المسألة بشيء من التفصيل لأن من شأن إنعام النظر في ذلك ودراسته أن يهدي الكتَّاب والمتكلمين إلى التزام هذا النهج من الأدب في كتاباتهم وأحاديثهم وهو ما ينقص كثيرا منا.

6.الخاتمة:

من خلال ما تم عرضه من النماذج القرآنية نستنتج أن المتحدث الجيد يهتم بتحسين كلامه وتجويد عباراته بما يوافق مقتضيات حسن الأدب وكمال مراعاة الشعور، وقد ظهر ذلك من خلال حديث الله عن نفسه وحديثه مع أنبيائه، وفي حديث أنبيائه معه سبحانه وحديثهم مع أقوامهم، وكذا في حديث العباد مع ربهم وحديثهم فيما بينهم.

وقد اختصرت الأمثلة جدا وإلا فإن المتاح منها كثير، حتى على مستوى غير البشر كما في حديث الملائكة مع ربهم، فهم مع اعتراضهم الظاهري على خلق آدم يعللونه بأنهم يسبحون بحمده ويقدسون له، بل

حتى في كلام الجن في قولهم [**وإنا لا ندري أشر أريد بمن في الارض أم اراد بهم ربهم رشدا**] فنسبوا إرادة الخير لله ونسبوا إرادة الشر لما لم يسم فاعله.

ومع أن أباهم إبليس اعترض على الله بالفعل فإنه لم يترك حسن الأدب في القول فخاطب ربه معترفا بربوبيته قائلا [**رب أنظرني**] واعترف له بالعزة فقال [**قال فبعزتك لأغوينهم**] وعدَّدَ المواطن التي يقعد منها لعباده فذكر أنه سياتيهم " **من بين أيديهم ومن خلفهم وعن ايمانهم وعن شمائلهم** "ولم يقل "**من فوقهم**" لأنه يعلم أن رحمة الله من فوقهم.

وإنا إذ نجمع هذه النصوص الدالة على كمال الأدب في الحديث، فإن ذلك ليس من باب حصر النكات واللطائف فحسب، وإنما من أجل السير على سننها والتحدث على منوالها، لأنه إذا كان الله الغني وأنبياءه المكرمون راعوا ذلك في كلامهم فنحن أولى بذلك وأحرى.

7.قائمة المراجع:

المؤلفات:

1- إبراهيم بن عمر بن أبي بكر البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.

2- أبو الحسن علاء الدين الشيحي المعروف بالخازن، لباب التأويل في معاني التنزيل، تح/ محمد علي شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1995.

3- أبو الحسن مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، المسند الصحيح، تح/ محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت.

4- أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي، الكشف والبيان عن تفسير القرآن، تح/ أبو محمد بن عاشور، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط1، 2002م.

5- أحمد الزيات وآخرون، المعجم الوسيط، دار الدعوة، القاهرة.

6- أبو حيان محمد بن يوسف بن حيان الأندلسي، البحر المحيط في التفسير، تح/ صدقي محمد جميل، دار الفكر، بيروت.

7- جماعة من علماء التفسير، المختصر في تفسير القرآن الكريم، مركز تفسير للدراسات القرآنية، ط3، 2016.

8- جمال الدين القاسمي، محاسن التأويل، تح/ محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلميه، بيروت، ط1، 1998.

9- أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، تح/أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط2، 1964م.

10- عبد الله بن أحمد بن غرم الله الغامدي، أدب الأنبياء مع الخلق في القرآن الكريم، رسالة ماجستير، جامعة أم القرى، مكة، السعودية، 1430/1429هـ .

11- أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري الجعفي، الجامع الصحيح، تح: محمد زهير، دار طوق النجاة، ط1، 2002.

12- أبو عبد الله محمد بن عمر الرازي، مفاتيح الغيب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط3، 2000.

13- عبد الكريم بن عبد الملك القشيري، لطائف الإشارات، تح/إبراهيم البسيوني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط3.

14- عبد الكريم يونس الخطيب، التفسير القرآني للقرآن، دار الفكر العربي، القاهرة.

15- عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تح/عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، ط1، 2000 م.

16- عبد العظيم العدواني، تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، تح/ حفني محمد شرف.
17- أبو السعود العمادي، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
18- سعيد حوّى، الأساس في التفسير، دار السلام، القاهرة، ط2004.
19- شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي، الأجوبة المرضية فيما سئل السخاوي عنه من الأحاديث النبوية، تح/ محمد إسحاق محمد إبراهيم، الناشر: دار الراية للنشر والتوزيع، ط1، 1998.
20- شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد ابن قيم الجوزية، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، تح/محمد المعتصم بالله البغدادي، الكتاب العربي – بيروت، ط3، 1996م.
21- أبو الطيب محمد صديق خان القِنَّوجي، فتحُ البيان في مقاصد القرآن، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بَيروت، 1992 م.
22- أبو الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، تح/ محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1999.
23- أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانى، تفسير الراغب الأصفهاني، تح/ عادل بن علي الشِّدِي، دار الوطن، الرياض، ط1، 2003 م.
24- أبو القاسم محمود بن عمرو الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، دار الكتاب العربي، بيروت، ط3، 1997م.
25- أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي الشافعي، مصابيح السنة، تح/ يوسف عبد الرحمن المرعشلي وآخرون، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 1987، بيروت.
26- أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تح/ عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت.
27- مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروز آبادى، القاموس المحيط، تح/ مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، بإشراف: محمد نعيم العرقسُوسي، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط8،2005م.
28- محمد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد المعروف بأبي زهرة، زهرة التفاسير، دار الفكر العربي.
29- محمد ثناء الله المظهري، التفسير المظهري، تح/ غلام نبي التونسي، مكتبة الرشدية، الباكستان، ط1992.
30- محمد رشيد بن علي رضا القلموني، تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)،الهيئة المصرية العامة للكتاب،1990م.
31- محمد سيد طنطاوي، التفسير الوسيط للقرآن الكريم، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط1.
32- محمد الطاهر بن عاشور، تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، الدار التونسية للنشر، تونس، 1984م.
33- محمد متولي الشعراوي، تفسير الشعراوي، مطابع أخبار اليوم، ط1997.
34- أبو المظفر منصور بن محمد السمعاني، تفسير القرآن، تح/ ياسر بن إبراهيم وغنيم بن عباس بن غنيم، دار الوطن، الرياض، ط1، 1997م.
35- ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تح/ محمد المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط2، 1997.

المقالات:

1- مالك بوعمرة سونة، توظيف إعجاز القرآن بالإيجاز لاكتساب ملكة القصد في اللفظ مع الوفاء المعنى، مجلة دراسات لسانية، قسم اللغة العربية وآدابها جامعة البليدة2 ، الجزائر، سبتمبر 2019.

8. الهوامش:

(1)إذا كان الله قد عهد بحفظ الكتب السماوية السابقة إلى البشر فقال[**والربانيون والاحبار بما استحفظوا من كتاب الله**] فإنه قد تكفل بحفظ كتابه بنفسه، فقال مؤكدا ذلك بأنواع من التأكيد [**إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون**] ولذلك لا يزال مع مرور الشهور الأيام وانصرام القرون والأعوام غضًّا طريا كما نزل أول مرة.

(2)القاموس المحيط، مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروز آبادى، تح/ مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، بإشراف: محمد نعيم العرقسُوسي، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط8، 2005م، ص58، المعجم الوسيط، أحمد الزيات وآخرون، ، دار الدعوة، القاهرة، 9/1.

(3)قال السخاوي: قال ابن تيمية: معناه صحيح، ولكن لا يعرف له إسناد ثابت. الأجوبة المرضية فيما سئل السخاوي عنه من الأحاديث النبوية، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي، تح/ محمد إسحاق محمد إبراهيم، الناشر: دار الراية للنشر والتوزيع، ط1، 1998، 245/1.

(4)عبد الله بن أحمد بن غرم الله الغامدي، أدب الأنبياء مع الخلق في القرآن الكريم، رسالة ماجستير، جامعة أم القرى، مكة، السعودية، 1430/1429هـ، ص23.

(5)شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد ابن قيم الجوزية، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، تح/محمد المعتصم بالله البغدادي، الكتاب العربي – بيروت، ط3، 1996م، 356/2.

(6)سعيد حوّى، الأساس في التفسير، دار السلام، القاهرة، ط2004، 3214/6.

(7)أخرجه: أحمد في المسند 231/5 [مسند معاذ بن جبل رضي اللَّه عنه]، والترمذي في السنن 11/5-12، كتاب الإيمان، باب ما جاء في حرمة الصلاة ، حديث رقم 2616، وقال: "هذا حديث حسن صحيح". وابن ماجه في السنن 1314/2- 1315، كتاب الفتن، باب كف اللسان في الفتنة، حديث رقم 3973.

أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي الشافعي، مصابيح السنة، تح/ يوسف عبد الرحمن المرعشلي وآخرون، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 1987، بيروت، 122/1.

(8)فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية في التفسير، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب، دمشق، بيروت، ط1، 1994، 379/1.

(9)ابراهيم بن عمر بن أبي بكر البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، 317/4.

(10)عبد الكريم بن عبد الملك القشيري، لطائف الإشارات، تح/إبراهيم البسيوني، الهيئة المصرية العامة للكتاب،القاهرة،ط3، 231/1.

(11)أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي، الكشف والبيان عن تفسير القرآن، تح/ أبو محمد بن عاشور، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط1، 2002م، 45/3.

(12)أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، تح/أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط2، 1964م، 86/20.

(13)أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني، تفسير الراغب الأصفهاني، تح/ عادل بن علي الشِّدِي، دار الوطن، الرياض، ط1، 2003 م، 497/2.

(14)تنظر هذه التوجيهات في نظم الدرر في تناسب الآيات والسور 317/4، فتح القدير، 379/1، محمد رشيد بن علي رضا القلموني، تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1990 م، 224/3، محمد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد المعروف بأبي زهرة، زهرة التفاسير، دار الفكر العربي، 1170/3، عبد الرحمن بن

ناصر بن عبد الله السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تح/عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، ط1، 2000 م، ص965 .

(15)أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد الزمخشري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط3، 1997، 99/2، محمد الطاهر بن عاشور، تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، الدار التونسية للنشر، تونس، 1984 م، 86/8.

(16)عبد العظيم العدواني، تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، تح/ حفني محمد شرف، ص:417.

(17)ومنها: يونس 21، و 107، هود 9-10، الاسراء 83، الروم 33، فصلت 49-51، الشورى 48.

(18)الكشاف، 144/2، أبو حيان محمد بن يوسف بن حيان الأندلسي، البحر المحيط في التفسير، تح/ صدقي محمد جميل، دار الفكر، بيروت، 147/5. أبو المظفر منصور بن محمد السمعاني، تفسير القرآن، تح/ ياسر بن إبراهيم وغنيم بن عباس بن غنيم، دار الوطن، الرياض، ط1، 1997م، 214/4.

(19)التحريروالتنوير،450/1،64/9، محمد متولي الشعراوي، تفسير الشعراوي، مطابع أخبار اليوم، ط1997، 11444/18.

(20)تيسير الكريم الرحمن، ص61، التحرير والتنوير،650/1.

(21)تفسير السمعاني،120/1.

(22)جماعة من علماء التفسير، المختصر في تفسير القرآن الكريم، مركز تفسير للدراسات القرآنية، ط3، 86/2016،1، محمد سيد طنطاوي، التفسير الوسيط للقرآن الكريم، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 237/1.

(23)التفسير الوسيط، 237/1.

(24)المرجع السابق، 117/3.

(25)زهرة التفاسير، 1645/3.

(26)أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تح/ عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، 527/3.

(27)عبد الكريم يونس الخطيب، التفسير القرآني للقرآن، دار الفكر العربي، القاهرة، 803/3.

(28)مالك بوعمرة سونة، توظيف إعجاز القرآن بالإيجاز لاكتساب ملكة القصد في اللفظ مع الوفاء المعنى، مجلة دراسات لسانية، قسم اللغة العربية وآدابها جامعة البليدة2، الجزائر، سبتمبر 2019، ص 156وما بعدها.

(29)تفسير المنار 253/5، التفسير القرآني للقرآن 852/3.

(30)جمال الدين القاسمي، محاسن التأويل، تح/ محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلميه، بيروت،ط1، 1998، 20/7، ومن هذا القبيل قوله تعالى [**وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها، قل ان الله لا يامر بالفحشاء..**] **الاعراف28**، فقد رد حجة لما كانت كاذبة، وسكت عن الثانية لما كانت صحيحة رغم أنها لا تصلح لأن يحتج بها.

(31)أبو عبد الله محمد بن عمر الرازي، مفاتيح الغيب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط3، 2000، 300/32.

(32)التحرير والتنوير 720/1.

(33)تفسير المنار 375/1.

(34)التفسير الكبير 466/12، البحر المحيط 417/4، الأساس في التفسير 1544/3.

(35)نظم الدرر في تناسب الآيات والسور 364/6، التفسير الوسيط 350/4.

(36)المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز 341/3، التفسير الكبير 466/12، التحرير والتنوير 117/7.

(37)الكشف والبيان عن تفسير القرآن 165/4، تفسير السمعاني 120/2، تفسير البغوي139/2، المحرر الوجيز 314/2، فتح القدير للشوكاني 153/2، أبو الحسن علاء الدين الشيحي المعروف بالخازن، لباب التأويل في معاني التنزيل، تح/ محمد علي شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1995، 129/2، أبو الطيب محمد صديق خان القِنَّوجي، فتحُ البيان في مقاصد القرآن، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بَيروت، 1992 م، 178/4.

(38)التفسير الكبير 46/13، تفسير القرطبي 27/7، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور161/7، ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تح/ محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط2، 1997، 169/2، البحر المحيط 566/4.

(39)تفسير السمعاني 433/2، التفسير الوسيط 213/7.

(40)ينظر الحديث المتفق عليه، البخاري برقم 3401، باب حديث الخضر مع موسى عليهما السلام، ومسلم برقم 170 باب من فضائل الخضر عليه السلام، محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، الجامع الصحيح، تح: محمد زهير، دار طوق النجاة، ط1،2002، مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري، المسند الصحيح، تح/ محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت.

(41)تفسير الخازن، 174/3، محاسن التأويل55/7.

(42)زهرة التفاسير،4569/9، الأساس في التفسير،3214/6.

(43)الأساس في التفسير 3214/6.

(44)أبو الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، تح/ محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1999، 253/7.

(45)تفسير الشعراوي، 3859/6 و 10924/18.

(46)محمد ثناء الله المظهري، التفسير المظهري، تح/ غلام نبي التونسي، مكتبة الرشدية، الباكستان، ط1992، 370/3، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور:436/7، المحرر الوجيز 415/2.

(47)مفاتيح الغيب، 34/7، تفسير المنار45/3.

(48)أبو السعود العمادي، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 295/4.

(49)مفاتيح الغيب 471/18.